

أبو حامد الفزالي

دراسة جديدة لحياته وأفكاره

بقلم اسماعيل المهدي

- ١ -

- الحجر يمكن أن يتقلب ذهباً . وإذا تركت في البيت كتاباً ، فمن الممكن أن يكون قد أصبح حصاناً . فالله تعالى قادر على كل شيء .
- حمسق .. ايلوش ٥٦٥ هـ .. كد منع وهج .. مهت مههع مي
- تكتب مثل هذه الحروف على خرقتين تحت قدمي الحامل ، فيسرع الولد الى الخروج في الحال .
- الحاجة الى المظم والملبس والمسكن اساس الضلال والفساد . والزواج خطيئة عقوبتها الاولاد ، والادخار انكار لقدرة الله .
- الانسان يبني للخراب ويولد للفناء . والعقلاء هم الذين يتمنون العدم .
- استمرار الحياة الدنيا قائم على المفلين .
- اذا اردت ان تشاهد جلال الربوبية ، فاجلس في مكان مظلم في خلوة ، ولف رأسك في ثيابك ليكون الظلام كاملاً .
- بعض آيات القرآن لا يجوز تفسيرها ، لانها نزلت للخاصة لا للامة ، اذ لا يمكن مخاطبة العقلاء بلغة الصبيان ، ولا يمكن مقارنة الملأكة بالحدادين .
- يجب على معظم الخلق الكف عن التفكير في اصول الدين . فاذا عجزوا عن ذلك ، فارتكاب المعصية اسلم لهم ، لان المعصية تطرد الافكار من رؤوسهم .
- عليك بالعزلة . فان لم تستطع فملازمة الصمت . فان لم تستطع فالنوم . وتجنب الضحك لانه يذهب بك الى قعر جهنم .
- الشيطان هو الذي يدفع الانسان الى طلب العلم .
- الاسلام بالسيف والسنان ، انجح من البرهان واللسان .
- الله هو الذي يريد المعاصي . ولو لم يكن يريدها ، فلماذا تمتلئ الدنيا بالمعاصي ؟
- السكوت امام ابليس طول العمر شيء لا ضرر فيه . لكن الهفوة الواحدة في الرأي تؤدي الى الهلاك .

والآن ...
 ماذا تقول ايها القارئ الفاضل - ادامك الله وابقاك - فيمن ينشر على الناس هذه الآراء ؟
 وماذا تقول فيمن يزعم ان هذه الآراء هي الدين الصحيح ؟
 وماذا تقول فيمن يزعم في الثلث الاخير من القرن العشرين ، ان صاحب هذه الآراء هو حجة الاسلام وامام الائمة الخالد ، وهو وحده ممثل التراث الاسلامي الذي يجب على عموم الخلق احيائه والدفاع عنه والافتناع به ؟
 رحم الله ابا حامد الفزالي !
 فقد كان الرجل والحق يقال صريحاً الى اقصى حدود الصراحة ، واضحا بدرجة يفتقدها كثيرون ممن يتمسحون بالدين والتراث . ولقد حاول الفزالي ان يخدم الاسلام على قدر ما صورت له ظنونه منذ تسعمائة عام ، وعلى قدر ما طلب منه سلاطين السلاجقة في ذلك الوقت . وكان الفزالي مرآة للمجتمع المندهور الذي عاش فيه . مرآة لهزيمة المسلمين امام الفزو الصليبي ، وخضوعهم لطغيان السلاجقة الاتراك . وكان يؤمن بسلطان ذلك الزمان ، ويرى الدفاع عنه دفاعاً عن ولي الامر الذي يحمل راية الدين . ومعنى ذلك ان هؤلاء الذين يصنعون منه اليوم حصاناً اجوف يحتشدون خلفه ، يعجزون حتى ان يكونوا مثله مرة لعصرهم وللمجتمع الذي يعيشون فيه .
 وفي الصفحات التالية ، تقدم افكار الفزالي من نصوص كلماته . فالتهويم على سطح الافكار ينتهي عادة الى ضياع الحقيقة . لكن الكلمة المكتوبة ، هي الجسم المادي للفكرة المجردة . وحين يطرح هذا الجسم امام عيون المثقفين ، لا يبقى بعد ذلك مجال للالتواء والاثارة . بهذا تخرج المناقشة من نطاق الخلاف المجرد حول الرجعية والتقدمية او قضيصة احياء التراث ، وتصبح المسألة بصراحة كما يلي :
 هل تستطيع هذه الجثة - هذه الكلمات الصفراء - ان تقف على

قديمها في عصر العلم والاشتراكية ، ام ان الافضل ان تحفظ في متاحف الفكر ، بكل الاحترام اللائق بالآثار التاريخية التي يتخطاها الزمن ؟
 لكن السؤال السابق يثير عدة نقاط تحتاج الى توضيح .
 ان ارتباط الحاضر بالماضي ، لا يقل عن ارتباط المستقبل بالحاضر . ولا يمكن ان نتصور ان التاريخ يبدأ اليوم او انه سيبدأ غداً . فالتاريخ بدأ منذ قرون . في الامس البعيد . والحركة التاريخية المستمرة تمارس على المدى الطويل ، عملية انتقائية تستبقي العناصر الصالحة وتستبعد العناصر غير الصالحة . والافكار التي يتوارثها الابناء عن الاجداد ، تقبل نوعين من التقييم .
 الاول ، تقييم للدور الاجتماعي الذي لعبته في حركة التاريخ في عصرها السابق .
 والثاني ، تقييم للدور الاجتماعي الذي يمكن ان تلعبه في حركة احياء التراث في عصرنا الحاضر .
 فالفكرة التقدمية هي التي تدفع تقدم التاريخ او تساعد الانسان على التطور والشعور بانسانيته واستكمال سيطرته على نفسه وعلى المجتمع وعلى الطبيعة . اما الفكرة الرجعية فتلعب على عكس ذلك دوراً ضد التقدم ، وتلوي عنق الانسان لترجع به القهقري ، وتدفعه الى الانتكاس على المستوى الحضاري الذي تحقق له .
 والفكرة قد تكون تقدمية في مرحلة سابقة من مراحل التاريخ ، ثم تصبح رجعية في مرحلة اخرى . وقد يحدث العكس . ورغم هذا التقييم النسبي ، فهناك افكار ذات قيمة تقدمية مطلقة ، بغض النظر عما يرتبط بها احياناً من تفاصيل ساذجة او متخلفة . حتى الاساطير البدائية قبل ظهور الاديان : تحتوي على كثير من الافكار الحية - افكار الحب والاخوة والعدالة وقدرة الإرادة البشرية .
 ان اسطورة برومثيروس مثلاً ، سوف تظل على الدوام صورة حية جميلة لشوثة الانسان ضد العجز المكتوب عليه ، وكفاحه من اجل المعرفة،

١ - الشك .. والخوف :

في عام ٤٨٨ من الهجرة ، كان الفزالي قد بلغ الثامنة والثلاثين من عمره ، وقضى اربع سنوات في التدريس في مدرسة نظام الملك فسي بغداد . وكان قد اصدر اشهر كتبه الفكرية ، وهي : «مقاصد الفلاسفة» ، و « فضائح الباطنية » ، و « تهافت الفلاسفة » ، وفجأة ترك زوجته واولاده وخرج من بغداد زاهدا متصوفا ، يضرب فسي الحجاز والشام ومصر ، يعيش في الخلوات والمقابر والسراديب المهجورة . ثم فجأة ايضا ، وبعد احد عشر عاما ، عاد الى التدريس في المدرسة «النظامية» في نيسابور عاصمة اقليم خراسان . وبعد فترة ، هجر التدريس مرة اخرى ليعيش في احدى تكايا الصوفية في بلدة طوس ، في اقليم خراسان حيث ولد . فالفزالي فارسي . كان يكتب بالفارسية الى جانب العربية . وربما كان هذا سببا من اسباب نزعه الروحانية المنحرفة . فاشهر المتصوفة الاوائل ، كانوا من الفرس المتأثرين بالمجوسية ، مثل معروف الكرخي ، وابي يزيد البسطامي ، والحلاج ، وجمال الدين الرومي ، وعمر الخيام .

لكن لماذا ترك الفزالي التدريس عام ٤٨٨ ، ولماذا عاد اليه عام ٤٩٩؟ هذا سؤال طرحه الناس على الفزالي نفسه - كما ذكر صراحة في مقدمة كتابه « المتقذ من الضلال » - فاخترع له اجابة لا يقبلها سوى هؤلاء الذين يقنسون كلماته .

في هذه النقطة بالذات ، لم يكن الفزالي صريحا . فقد زعم انه اصيب بنوبة شك في معتقداته استمرت ستة اشهر حتى الجمعت لسانه ، فلم يملك الا ان يقطع علاقته بالدنيا حفاظا على دينه ، وان يسلك طريق التصوف في الخلوات البعيدة .

لكن لماذا لم يبحث عن الخلوة في زوايا العراق او خراسان كما فعل بعد ذلك ؟ ولماذا ترك الخلوة وعاد الى طوس في ذلك الوقت بالذات بعد احد عشر عاما ؟

ثم لماذا ترك التدريس بعد ان عاد اليه ؟ الجواب ببساطة ، هو ان الفزالي خرج من بغداد فرارا من ازمة حكم لا من ازمة شك . واليكم القصة (٤) .

كان الفزالي يدين بالولاء للوزير السلجوقي نظام الملك انذي عينه في التدريس واعقد عليه الرعاية . وكان نظام الملك اقوى وزراء السلاجقة وابعدهم نظرا . وهو الذي انشأ المدارس النظامية التي سميت باسمه ، لتكون مراكز دعاية لمذهب اهل السنة ، تستخدمها الدولة العباسية الرابعة في العراق وخراسان ضد نشاط « الازهر » الذي انشاه الفاطميون في مصر .

وكان الوزير نظام الملك قد نجح في فرض سيطرته على معظم اقاليم الدولة بعد وفاة السلطان الب ارسلان . ومعنى ذلك ان نظام الملك لم يكن وزيرا الا بالاسم ، لكنه كان في الحقيقة يمارس سلطة اقوى من سلطة السلطان الجديد « ملكشاه » في بغداد ، واقوى من سلطة الخليفة العباسي « المتندي بالله » الذي كان مجرد شعار ديني للدولة يحتفظ به سلاطين بغداد من باب الشكليات . ويسمى ذلك العصر ، بالعصر العباسي . وسيطر فيه السلاجقة على الحكم . وهم الذين يقول عنهم المستشرق الكبير بارتولد انهم ظلوا مائة عام عاجزين عن تعلم القراءة والكتابة ! (٢٤) وفي ذلك العصر ايضا ، استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وتفككت الدولة تماما ، ثم شهدت الخلافة العباسية الرابعة المتدهورة ، آخر ايامها عام ٥٧٥ .

ويبدو ان السلطان ملكشاه كان قد نجح في سنواته الاخيرة في اقامة بعض العلاقات السرية بحركة القرامطة التي حققت في ذلك الوقت انتصارات ملحوظة واستطاعت ان تستولي على مدينة البصرة . المهم ان احد انصار القرامطة نجح في قتل نظام الملك عام ٤٨٥ ، لحساب ملكشاه وزوجته ترکان خاتون ، على ما يرجح المؤرخون . وبذلك فقد الفزالي حاميته وولي نعمته .

ورغبته في اكتشاف سر الكمال . وعلى عكس ذلك ، فاستطورة سيزيف تلعب دور الاداة الفنية في الفلسفة الرجعية لتبرير الخضوع والرضا بالمتكسب .

وفي فجر الاسلام ، كان ابو ذر الغفاري يدعو الى توزيع الثروة ، ويصب نار سخطة على اصحاب الاموال «الذين يكنزون الذهب والفضة» ، ويدعو الفقراء الى ان يشهروا السيوف ضد مفتنصي حقوقهم . فهذه اذن دعوة لا تنطفئ حراتها ، طالما انقسم العالم الى اغنياء وفقراء ، وطالما استمر كفاح الانسان من اجل مجتمع المساواة . وهي بصارة اخرى ، دعوة تقدمية انسانية بكل معاني الكلمة .

وفي القرن الثاني من الهجرة (قبل الفزالي بثلاثة قرون) ، كان شيوخ الاسلام من المعتزلة يخوضون معارك الجدل في المساجد والمجالس دفاعا عن سلطان العقل ووجوب العدل والصلاح وحرية الارادة للفرد . وكانوا بذلك يقدمون - الى التاريخ - الجانب التقدمي والمشرق فسي الفكر الاسلامي . الفلسفة انني تزاد رسوخا مع تقدم العلم والاشتراكية ، وتحفظ للاسلام جوهره التقدمي الصحيح ، وتسجل له بالفخر ارقى نظريات الفكر الديني في العالم كله .

بهذا المنهج يمكن ان نحكم على قيمة افكار الفزالي ، سواء في العصر الذي عاش فيه ، او في عصر العلم والاشتراكية - العصر الذي نحتاج فيه الى احياء كل فكرة تقدمية كبيرة في تراث اجدادنا .

وقد تساءل احد الكتاب في تعاطف طريف : هل يمكن ان نحكم على الفزالي بانه رجعي لانه لم يكن يركب سيارة كاديلاك؟! لكن التراث الاسلامي حافل بابطال التقدم الذين ركبوا الاابل ، وربما لم يركبوا شيئا .

ومع ذلك ، فالغريب ان هؤلاء الذين يقيسون التقدم بطول السيارة او ارتفاع ثمنها ، هم اشد الناس دفاعا عن الفزالي داعية التصوف وحب الفقر والرغبة في « الفل والانتكسار والعبودية » . ولو سألنا الفزالي نفسه : هل يختار التقدم ام الرجعية ؟ - لقال الرجل بصراحته المعروفة ، انه يختار الرجعية . كل ما في الامر انه كان يطلق على التقدم اسم « العلوم الحديثة » او « البدع » ، ويطلق على الرجعية اسم « الرجوع الى مذهب اهل السلف » . ولا يكاد كتاب من كتبه يخلو من تقرير لهذا الرأي .

وبرغم كل ما لقيه الفزالي طوال القرون السابقة من التدريس العجيب من السلاطين والامراء واعيان المجتمع ومن يخدمونهم من رجال الدعاية والتبشير ، فقد انبرى له عديد من رجال الدين المخلصين ، حتى في العصور القديمة .

من هؤلاء مثلا الفقيه المعروف ابن تيميه (٦٦١ - ٧٢٨ هجرية) الذي كتب فصولا عديدة في « تسفيه » آراء الفزالي . اما ابن القيم (٦٩١ - ٧٥١ هجرية) ، فقد هاجمه هجوما عنيفا ، وكان يقول عن بعض افكاره :

« هذا الكلام فوق الجنون بدرجات » . (١) ✖

وقال عنه ايضا :

« انا امتعجب من ابي حامد اكثر من تعجبي من هؤلاء الجهلة بالشريعة » .

ولاحظ بعض مفكري الاسلام ان في كتب الفزالي مئات الاحاديث غير الصحيحة المنسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم . (٢) ومنذ ثلاثة واربعين عاما ، وقبل ان يتم الكشف عن عدد من الكتب المتهافئة التي تركها الفزالي ، كتب الدكتور زكي مبارك في رسالة حصل بها على درجة الدكتوراة من الجامعة :

« الواقع ان الفزالي كان فتنه من فتن العصور القديمة . وقد نسي العلماء في الدفاع عنه ان هناك عقولا يجب ان تحكم ، وانه لن يخلو العالم من اصحاب العقول ، ولو كره الجامدون ! » (٣) . ولنبدا القصة من اولها :

✖ الحواشي والمراجع في نهاية المقال .

وبعد فترة ، مات ملكشاه أيضا ، فنشب صراع دموي مرير بين « محمود بن ملكشاه » وأخيه غير الشقيق « بركياروق » . واستطاع انصار بركياروق ان ينادوا به سلطانا وان يهزموا جيوش اخيه . لكنه لم يكد يفتح الفتن الخطيرة التي ثارت ضده ، حتى فوجيء بجيوش عمه السفاح السلجوقي « توتوش ابن الب أرسلان » تزحف على بغداد . وانتصر توتوش واعلن نفسه سلطانا في بغداد عام ٤٨٧ . وهرب بركياروق الى اصفهان .

وفي ذلك العام ، كان الخليفة العباسي المقتدى بالله قد مات ، وتولى الخلافة بعده ابنه « المستظهر بالله » . وكان شابا في السادسة عشرة من عمره . ويبدو انه لم يكن قد اقتنع بعد بان الخليفة هو مجرد رمز شكلي ، وان سلطان بغداد هو صاحب السلطة ، فتورط في الاشتراك في الصراع بين طالبي السلطنة ، وكان موقفه مع السفاح توتوش ضد بركياروق المعروف باتصالاته بالجمهور وعلاقته بالقرامطة .

وكان الفزالي اذ ذاك مجرد كاتب نشيط يطلب النفوذ والشهرة . قال في « المنقذ من الضلال » :

« تفكرت في نييتي في التدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت » . (٥)

وقال :

« وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه » .

(ص ٤٢) .

ولما كان من شروط كسب الجاه ، العثور على صاحب سلطة يحل محل نظام الملك ولي نعمته السابق ، فقد وجد الفزالي ضالته في الخليفة الشاب الصغير « المستظهر بالله » . وسرعان ما رمى طالب الجاه حباله ، فاتصل بالخليفة ، وفي فترة قصيرة ، اصدر الفزالي كتاب « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » ، واهداه السى الخليفة المستظهر قائلا :

« اما بعد ، فاني لم ازل مدة المقام بمدينة السلام (بغداد) متشوقا الى ان اخدم المواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية ، ضاعف الله جلالها ومد على طبقات الخلق ظلالها ، بتصنيف كتاب في علم الدين اقصي به شكر النعمة واقيم به رسم الخدمة واجتني بما اتعاطاه من الكلفة ثمار القبول والزلفة . . . حتى خرجت الاوامر الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالاشارة الى الخادم في تصنيف كتاب في الرد على الباطنية . . فرأيت الامتثال حتما والمسارعة الى الارتسام حزما » (٦) . لكن الفزالي كان سيء الحظ هذه المرة . فقد نجح بركياروق في تنظيم صفوفه ، واستولى على بغداد ، وتعقب « توتوش » الى « الري » وهناك وقعت المعركة الحاسمة التي قتل فيها توتوش عام ٤٨٨ . وعاد بركياروق الى بغداد يصفي حساباه مع أعدائه ، وهزم انصار توتوش وحليفه الخليفة المستظهر بالله .

ووجد الفزالي نفسه في موقف حرج ، خصوصا ان بركياروق لم يكن من النوع الذي يستطيع الفزالي ان يتعلق به . فالفزالي يريد سلطانا يلف حول رأسه عمامة كبيرة ويجعل مهمة الدولة ذبح الزنادقة ومثري الاسئلة الدينية والبده ، ويقذف العطاء على رجال الدين كما كان يفعل نظام الملك . (٧)

في هذه الظروف السياسية ، اصيب بنوبة الشك التي تحدث عنها ، او بالاحرى نوبة الخوف . وكان من اسباب ترده ان « فخر الملك » ابن ولي نعمته السابق نظام الملك ، تولى الوزارة للسلطان بركياروق ، فداعب الامل قلب الفزالي في ان يضمن له فخر الملك رضاء السلطان . لكن من سوء حظه ان العلاقات ساءت بين الاثنين ، وانتقل فخر الملك بعد ذلك الى خراسان .

وهكذا وجد ابو حامد نفسه وحيدا معرضا للانتقام السلطان ، او محروما من رضائه على الاقل . فهبطت عليه وساوس الشك ، واكتشف ان الحياة الدنيا ليست دار سعادة ، لان السعادة في الآخرة ، وادرك ان العلوم التي ينشرها على الناس علوم زائفة ، وان واجب المسلم الانتفاع عن العالم كله لمشاهدة جلال الربوبية .

ومع ذلك ، فالشيء المثير للملاحظة - كما سنرى - انه بمجرد وفاة بركياروق ، عاد الفزالي الى المدرسة النظامية في نيسابور .

وقبل ان نتناول قصة العودة ، يجب ان نشير الى ان الكلمات المذكورة في « المنقذ » ، تعتبر نوعا من النقد الذاتي يسجله الفزالي على نفسه ، ليدين به مؤلفات هذه المرحلة وهي « مقاصد الفلاسفة » ، و « فضائح الباطنية » ، و « تهاوت الفلاسفة » ، طالما انه يصف العلوم التي كان ينشرها اذ ذاك ، بانها « غير خالصة لوجه الله تعالى » .

لكن مؤلفات الفزالي الاخرى ، تؤكد ان هذا النقد الذاتي لم يكن جادا ، وانه كان جزءا من القصة التي ذكرها عن فتنة الشك .

ثم اشارة اخرى ، وهي ان الفزالي قضى في منفا الاختياري احد عشر عاما ، صنف فيها مئات الصفحات ، تضمنت كثيرا من تجاربه الشخصية ، لكنه لم يذكر كلمة واحدة - بالتصريح او التلميح - عن تعرضه لازمة الشك التي تفنن في وصفها في « المنقذ من الضلال » ، عندما سألها تلاميذه كما اعلن في مقدمته : لماذا تركت التدريس ثم لماذا عدت اليه ؟

وقد سمع الفزالي بلا شك همسات الهامسين عن الاسباب السياسية لرحيله . والدليل على ذلك انه اشار الى هذه الهمسات في « المنقذ » اشارة لا تخلو من دهاء ، لكنها بالغة الخطورة في قيمتها التاريخية ، فقال :

« وظن من بعد عن العراق ، ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولادة » . (ص ٣٠) .

وفي ربيع الثاني عام ٤٩٨ مات بركياروق ، وتولى السلطنة اخ ثالث اسمه « محمد بن ملكشاه » . ولم يلبث الفزالي ان شعر هجاة بالشوق الى اولاده الذين تركهم سنوات طويلة . فعاد يمارس الخلوقة والتصوف في طوس مستقط رأسه ، على مقربة من ابن ولي نعمته « فخر الملك » في نيسابور . ولم تكد تمر شهور معدودة ، حتى كان الفزالي قد وافق « ملزما ! » على التدريس في مدرسة نيسابور ، قال عن ذلك في كتاب « المنقذ » :

« وامر (السلطان) امر الزام بالتهوض الى نيسابور ، وبلغ الالتزام حدا كان ينتهي لو اصررت على الخلاف الى حد الوحشة . » (ص ٤٠) . وخوفا من « وحشة » السلطان ، عاد الفزالي الى التدريس عام ٤٩٩ . ومن الصعب ان نحدد بدقة ، الشهر الذي ترك فيه التدريس مرة اخرى . لكن الشيء المعروف ، انه اصدر عام ٥٠٥ كتاب « المنقذ » ليفسر به عودته ثم توقفه . ورغم انه فرس العودة بصور امر السلطان ، فلم يذكر اي تفسير لانسحابه الجديد الى طوس . لكن التاريخ يقدم لنا واقعة مؤكدة ، هي ان فخر الملك الذي دعا الفزالي الى العودة ، قتل في نيسابور في نفس العام - عام ٥٠٥ .

وكان الفزالي قد قام بمحاولة بعد ذلك (على الأرجح) ، لكسب الخطوة لدى السلطان الجديد « محمد بن ملكشاه » . فاصدر كتابا بالفارسية (ترجمه احد تلاميذه الى العربية) ، بعنوان « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ، واهداه الى السلطان المذكور . لكن يبدو انه لم يستطع ان يبلغ بالكتاب الخطوة المطلوبة ، فآثر ان يقضي بقية حياته في سراديب التصوف في طوس .

وكان الفزو الصليبي ضد الامة الاسلامية قد بدأ عام ٤٩٠ هجرية ، بينما الفزالي مشغول بالقبوينة في المنارة المغلقة بدمشق وفسي كهف الصخرة في بيت المقدس ، ولف رأسه بالثياب « لمشاهدة جلال الربوبية » . وفي عام ٤٩٣ استولى الصليبيون على بيت المقدس . ولم يفكر الفزالي وهو يتحدث عن احياء الدين ان يدعو المسلمين للجهاد دفاعا عن وطنهم ودينهم ، بينما كان رجال الدين المسيحي في أوروبا غارقين الى آذانهم في اثاره الرعاع والتلويح بالصلبان وترديد الاماني عن سحق الاسلام والاستيلاء على ارض المسلمين . وفي البلاد الاسلامية التسي احتلوها ، ذبحوا عشرات الآلاف من الابرياء في مجازر دموية لا ينساها التاريخ . ورغم ذلك كله ، لم تحسرك انهار الدم شيئا من انفعالات

— التتمة على الصفحة ٥٠ —

أبو حامد الغزالي

— تمة المنشور على الصفحة ١١ —

« حجة الاسلام » ، ولم يسمع في خلواته ومشاهداته ما يدفعه الى ان يقول كلمة واحدة عن هذه المحنة الكبرى ، رغم انه سكب قناني الحبر على مئات الصفحات ضد المعتزلة والمفكرين الاحرار ، وضد الجماهير التي تؤمن بحقها في الدين والدنيا معا ، وترفض أن تجعل من الحياة والموت بديلين : تنازل للملوك والامراء عن اولهما ، وتفتح لنفسها بوفرة القبور.

٢ — الدين والدنيا :

لا يحتاج الانسان في القرن العشرين الى ان يرهق نفسه ليقرر حقيقة واضحة ، هي ان قوة الدين عند المؤمن لا تنفصل عن قوة الدنيا . كذلك لا يحتاج الانسان الى ان يرهق نفسه ليثبت ان الاسلام — الدين الوحيد الذي اقام اقوى دولة في العصور الوسطى — يقترب في جوهره من هذا المفهوم الصحيح .

لكن الغزالي اختار طريقا آخر لحياء الدين ، طريق الهزيمة والاستسلام . الهزيمة امام الغزو الصليبي ، والاستسلام لفساد المجتمع وطفيان الحكام السلاجقة وانكسار الجماهير امام الفقر والعجز . فهو القائل :

« اذا عجزنا عن الفتيمة ، رضينا بالسلامة في الهزيمة . » (٨)

ومن الابواب العجيبة في المجموعة التي اصدرها الغزالي بعنوان « احياء علوم الدين » ، باب كبير يسمى « كتاب ذم الدنيا » ، يحشد فيه الغزالي غرائب القصص والاحاديث المصنوعة التي تستهدف اثاره سخط القارئ على وجوده ، بحيث لو اقتنع بها لاغلق الكتاب وشق نفسه ! والخطر في ذلك انه يسوق افكاره السومومة ، منسوبة الى الدين .

يقول في فاتحة كتابه :

« اكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم الى الآخرة . بل هذا مقصود الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم يعثوا الا لذلك » . (٩)

فما اعجب حجة الاسلام هذا ، يزعم انه يدافع عن الاديان والانبياء ، فلا يقول انهم جاءوا لصالح الحياة وخير البشر ، بل يؤكد ان هدفهم الوحيد هو صرف الناس عن حياتهم واعدادهم للموت ! .

يقول ايضا :

« ويروي ان الله لما أهبط آدم الى الارض قال له : ابن للخراب ، ولد للفناء » . (١٠)

ثم يحكى قصة مثيرة للتعزز ، يزعم فيها ان سبب هبوط آدم الى الدنيا انه بعد ان اكل من الشجرة للحرمة ، حاول ان يجد في الجنة مكانا يقضي فيه حاجته في ركن او تحت شجرة ، فقال له الله : ان الجنة نظيفة لا يسمح بقضاء الحاجة فيها ، فاهبط الى الدنيا لتقضي حاجتك هناك ! (ص ١٧٦ — ١٧٧) .

ويقدم بعد ذلك محاولة لتفسير تاريخ تطور البشرية ، يرى فيها ان تاريخ الانسان هو تاريخ الفساد ، لان دوافع حياة الانسان هي « حاجة الطعام والملبس والسكن » ، وكلها « اساس الضلال » . (ص ٢٠٠) .

فهل يطالب جميع البشر بالزهد والتصوف ؟

لا . فهو في هذه النقطة بالذات يتمتع بادرارك عملي لماح . وفي رايه انه لولا المغفلون لانقطع البشر جميعا عن الدنيا ، ولانقطعت الارزاق التي يعيش عليها الزهاد الحقيقيون ، وهم اولياء الله من امثاله . واذن فلا بد ان يبقى في الدنيا المغفلون المغتوتون بها ، حتى يستطيع هو ان يمارس الزهد والتصوف .

يقول في بيان غفلة البشر الذين يتعلقون بالحياة :

« باعشهم عليه حرص جمع المال . فيتعبون طول الليل والنهار في الاسفار . ونصيبهم منها جمع المال ، الذي ياكله لا محالة غيرهم : اما قاطع طريق ، واما سلطان ظالم . ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصالحة للعباد . بل جميع امور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة . ولو غفل الناس وارتفعت هماتهم لزهدوا في الدنيا . ولو فعلوا ذلك لبطلت المعاش . ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد ايضا » ! (ص ١٩٩) .

رحم الله الغزالي رحمة واسعة ! فقد كان الرجل صريحا . لنذكر اذن امثلة اخرى لمئات الحكم والاحاديث التي يحشدنا في كتبه .

« سيد الاعمال الجوع وذل النفس ولباس الصوف » . (الاحياء ، مجلد ٣ ص ٧٥) .

« كان فتح الموصل اذا اشتد مرضه وجوعه يقول : الهي ابتلني بالمرض والجوع ، فكيف أؤدي شكر ما انعمت علي ؟ » (ص ٧٦) .

« قال ابو سليمان : الجوع عند الله في خزنة ، لا يعطيه الا لمن احبه » . (ص ٧٧) .

وفي باب بعنوان « في فضل الفقراء » في كتابه « مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام القيوب » ، يقول :

« مر المسبح عليه السلام على رجل نائم ، فايقظه وقال : يا نائم ، قم اذكر الله تعالى . فقال : ما تريد مني ؟ انني تركت الدنيا لاهلها : فقال له : فم اذن يا حبيبي ! » (ص ٨٠) .

وبهذه المناسبة يكرر عديد من المستشرقين ذوي الميول الصليبية المعادية للاسلام ، ان الغزالي في فترة تصوفه وخصوصا اثناء اقامته في الشام ، تأثر تأثرا كبيرا بالمسيحية . بل يقول الدكتور زويمر ان سبب هداية الغزالي هو قراءته للانجيل . (١١) اما البارون كارادي فـ المعروف بعدائه للروح الاسلامية الصحيحة ، فقد كتب عن الغزالي في الكتاب الذي خصصه لدراسته :

« اني اعتقد ان هذا الشخص (الغزالي) سوف يبدو اقل بعدا عنا واقرب الى التالف معنا » . (١٢)

يقول الغزالي في « مكاشفة القلوب » :

« قال (الله) لموسى : يا موسى ، اذا رأيت الفقر مقبلا ، فقل مرحبا بشعار الصالحين » . (١٣)

« يأتي الفقير الى الله يوم القيامة ، فيعند الله تعالى اليه كما يعتذر الرجل للرجل ، ويقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ، ولكن لما اعددت لك من الكرامة والفضيلة » . (ص ٨١) .

« احب العباد الى الله تعالى ، الفقير القانع برزقه » . (ص ٨٣) .

« يقول الله تعالى يوم القيامة : ابن صفوتي من خلقي ؟ فيقول الملائكة : ومن هم يا ربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعون ببطاني الراضون بقدرتي . ادخلوهم الجنة » . (ص ٨٣) .

ورغم ان القرآن يقول « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، فالغزالي يقول :

« الاولاد عقوبة شهوة الحلال » . (١٤)

ويقول :

« اذا طلب الرجل الحديث ، او سافر في طلب المعاش ، او تزوج ، فقد ركن الى الدنيا » !

لهذا السبب هجر الغزالي اولاده وزوجته احد عشر عاما ، بحشا عن لذة الذوق والمشاهدة في الصحارى والسراديب . بل ان طلب الرزق يعد في رايه انكارا لقدرة الله . يقول في « منهاج العابدين » :

« فان قيل : هل يلزم العبد طلب الرزق ؟ فاعلم ان الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام ، لا يمكننا طلبه . اذ هو شيء من فعل الله

سبحانه للبعد ، كالحياة والموت ، لا يقدر العبد على تحصيله ولا على دفعه . فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون اسباب ، فهل يلزمنا طلب الاسباب ؟ قيل له : لا يلزمك ، ولا حاجة للعبد اليه ، اذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب . ثم ان الله تعالى ضمنه لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب . قال تعالى : « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » . ثم كيف يصح ان يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه ؟ فالواحد منا لا يعرف سبب الرزق من أين يحصل عليه . فلا يصح تكليفه . (١٥)

والله تعالى - في رأيه - لا يحدد الرزق للانسان فقط ، بل يحدده ايضا للحيوانات والحشرات جميعا . ولهذا هاجم المعتزلة لانهم قالوا : « انه لا رزق لله تعالى على الجاهل » . (١٦)

واذا كان يرى ان طلب الرزق استكبار على عطاء الله ، فهو يسرى ايضا ان الادخار اهدار للتوكل وتشكيك في ضمان الله . والا فلماذا تدخر ما دام الله هو الذي يضمن لك كل لحظة من لحظات حياتك ؟ وكيف يحق للمؤمن ان يدخر لمستقبله في الدنيا ، وواجه ان يتمنى الرحيل منها في اقرب وقت ليكسب سعادة الآخرة ؟ يقول الفزالي :

« ارفع الدرجات درجة من لا يلتفت الى غده ويقض همته على يومه ، ويومه على ساعته ، وساعته على نفسه ، ويقدر نفسه في كل لحظة مرتحلا من الدنيا او مستعدا للارتحال » . (١٧)

ويقول ايضا :

« الذي يدخر لسنة ، ليس من التوكلين اصلا . . . والذي يدخر لاربعين يوما فما دونها ، يحرم من المقام المحمود الموعود في الآخرة » . (١٨)

ويقول فيما يسميه « بداية الهداية » :

« فاذا اردت النوم ، فابسط فراشك ، وتم على يمينك كما يضجع الميت في لحدده ، ولعل الله تعالى يقبض روحك في ليلتك فكن مستعدا للقائه ، وتكون وصيتك مكتوبة تحت راسك » . (ص ٤١) .

ويقول :

« الزلة أولى ، فعليك بها ، ففيها النجاة والسلامة . فان كانت الوسواس تجاذبك ، فعليك بالنوم . فاذا عجزنا عن الفئيمة ، رضينا بالسلامة في الهزيمة . فانوم اخو الموت ، وهو تعطيل للحياة والتحاق بالجمادات » ! (ص ٣٦) .

ويجب على المسلم ايضا « ملازمة الصمت » وتجنب « المزاح والسخرية في الجد والهزل » . (ص ٧٠) . حتى الاستشهاد في سبيل الله ، لا يشفع لمن يرتكب خطيئة الضحك البريء . يقول اعتمادا على احد الاحاديث التي اخترعها :

« في الخبر ان الرجل يتكلم بالكلمة ليضحك بها اصحابه فيهوى بها في قعر جهنم سبعين خريفا . وروى انه قتل شهيد في المعركة على عهد رسول الله ، فقال قائل : هنيئا له بالجنة . فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه » . (ص ٦٤) .

وفي هذا الكتاب العجيب الذي اطلق عليه شارحه اسم « مراقي العبودية » ، ينصح قارئه بان يسلك دائما مسلك « العبد الذليل المذنب » (ص ١٠) . ويقسم له يومه الى عدة فترات ابتداء من الفجر ، يشغلها بالاذكار والاستغفار والتسبيح ، يستفتحها كل يوم عند الاستيقاظ بهذا الدعاء ليثبت انه « مسكين عاجز » ؟ - « اللهم اني اصبحت لا استطيع دفع ما اكوه ، ولا املك نفع ما ارجو » (ص ٢٨) .

هذه نصيحة الفزالي للقارئ « المسكين الذليل المذنب » . اما الملوك والامراء والاغنياء ، فلم يخصص لهم في كتبه الكثيرة فصلا واحدا يفضح انحرافهم . بل على العكس ، كتب في « التبر السبوك في نصيحة الملوك » ينصح محمد بن ملكشاه وامراء بيته ، بان يوزع يومه على اربع فترات من نوع مختلف تماما عن فترات العبودية التي مر ذكرها . بل انه في هذا الكتاب لم يعترض على اشتغال السلطان بشرب الخمر او الصيد ، الا اذا حدث ذلك « دائما » ! يقول :

« ولا ينبغي للسلطان ان يشتغل - دائما - بلعب الشطرنج والنرد وشرب الخمر والصيد ، لان ذلك يمنعه ويشغله عن امور الرعية . فان

لكل عمل وقتا . . فالملوك القدماء قسموا النهار اربعة اقسام . قسم لطاعة الله وعبادته ، وقسم للنظر في الرعية ، وقسم للاكسل والشرب والتزود من الدنيا واخذ الحظوظ من الفرح والسرور ، وقسم للصيد ولعب الشطرنج وما اشبه ذلك » (١٩) .

ورغم ان الفزالي اصدر هذا الكتاب كما ذكرنا في اخر ايام حياته ، فاسلوبه فيه يختلف كل الاختلاف عن اسلوب الكتب التي كان يصدرها للامة الفقراء . ويبدو ان من اسباب كتابته بالفارسية انه لم يكن يريد ان يقرأه الجمهور ، لولا ان ترجمه احد تلاميذه . وفي هذا الكتاب قال رايه صراحة في اهل عصره .

قال يخاطب السلطان ، ويكاد يدعو الى الطفيان باسم ارادة الله : « ان زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء واهل القسوة والشحناء . . . وفي الامثال : ظلم السلطان مائة عام ولا ظلم الرعية بعضهم لبعض سنة واحدة . واذا جارت الرعية ، سلط الله عليهما سلطانا جائرا وملكا قاهرا . . . قال الحجاج بن يوسف الثقفي : ايها الناس ان الله سلطني عليكم باعمالكم . فان انا مت فلا تخلصون من الظلم مع هذه الاعمال السيئة ، فان الله تعالى خلق امثالي كثيرا . واذا لم اكن انا ، كان من هو اكثر شرا مني » (ص ٦٢) .

ويبدو ان بعض قرائه اعجبوا بهذا الكتاب ، فاصطنعوا على غراره كتابا آخر بعنوان « سر العالمين وكشف ما في الدارين » (٢٠) . وكتاب سر العالمين ، يتداوله القراء حتى اليوم منسوب الى الفزالي ، مع ان المرجح انه منقول . ومع ذلك فقد اصبح جزءا من تصور الجمهور عن الفزالي ، خصوصا هؤلاء الذين قرأوا له « التبر السبوك » فادركوا ان الفزالي يتكلم عن الدنيا كلاما جميلا حين يخاطب الملوك . ولهذا السبب اورد المنتحلون على لسانه في كتاب « سر العالمين » هذه الكلمات :

« سألني جماعة من ملوك الارض ان اضع لهم كتابا معنوم المثل لنيل مقاصدهم » (ص ٢٠) .

ثم ملأوا الكتاب بعد ذلك بالحديث المفصل عن انواع الماكولات واللحوم والحلوى والهريسة والظلماج ، والوصفات الغربية ، وطريقة مشاهدة الجان ومصادقتهم واستخدامهم . ولا يخلو الكتاب ايضا - على طريقة الفزالي - من احاديث مصنوعة ، منها هذا الحديث الغريب : « قال صلى الله عليه وسلم : شكوت الى اخي جبرائيل ضعف الوقاع (اي مع الزوجات) ، فامرني باكل الهريسة ، فوجدت لامري جبرا » (ص ٧٤) .

هل من الغريب اذن ان يعترف الفزالي نفسه ، بان الكثيرين من رجال الدين المعاصرين له ، نهوا الناس عن قراءة بعض كتبه ؟ ليس هذا غريبا .

لكن الغريب ان يظهر اليوم بعد تسعمائة عام من يدعو الى غير ذلك . قال الفزالي في تقديمه لكتابه « الاملاء » يشتم رجال الدين المعاصرين له لهجومهم على كتاب « احياء علوم الدين » :

« شركاء الطعام وامثال الاتمام وسفهاء الاحلام وعار اهل الاسلام ، طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ، وافتنوا باطراحه ونبذوه ، ونسبوا كاتبه الى ضلال واضلال ، ونبذوا (اي اتهموا) قراءه بزئغ في الشريعة واختلال » .

٣ - السحر والخرافة :

راينا ان الفزالي يعد طلب العلم انصارا الى الدنيا وانشغالا عن الآخرة ، فالعلم الصحيح لا يشمل العلوم العقلية ، ولا حتى علوم الحديث واصول الدين . لهذا قال فيما يسميه « بداية الهداية » :

« اعلم ان نفسك المائلة الى طلب العلم ، هي النفس الامارة بالسوء ، قد انتهضت مطيعة الشيطان اللعين ليبدلك بجبل غروره فيستدرجك بمكيدته الى غمرة الهلاك ، وفصده ان يروج عليك الشر في معرض الخير حتى يلحقك بالاخسرين . وعندئذ ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء وما ورد فيه من الاخبار والآثار » (ص ٥) .

ذلك ان الفزالي يرى ان العلم الوحيد الذي يمكن طلبه هو « علم الآخرة » او « علم طريق الآخرة » ، اي العلم الذي « يقلل من رغبتك

ملاحظة : تكرر على الصفحة ٥٢ ، خطأ ، اربعة اسطر في اسفل العمود الثاني ابتداء

من السطر الذي يبدأ بكلمة الى الضلال وينتهي وانشغالا عن . . .

في الدنيا ويزيد من رغبتك في الآخرة» (ص ٢٢) .

لكن علم الآخرة هذا ليس علما بالمعنى المفهوم ، بل هو نوع مسن المشاهدة الصوفية التي تستنكر العلم . يتحدث الفزالي عن ذلك قائلا :

« فترتفع الحجب بينك وبين ربك ، وتكشف لك انوار المعارف ، وتتفجر من قلبك ينابيع الحكم ، وتتضح لك اسرار الملك والملكوت ، ويتيسر لك من العلوم ما تستحضر به هذه العلوم الحديثة » (ص ٨٥) .
وفي كتيب صغير بعنوان «الرسالة اللدنية» يذلل الفزالي جهده لافتتاح القارئ بما يسميه « العلم الفيبي اللدني (اي من لدن الله) الذي يعتمد عليه خواص الصوفية » (٢١) .
ويحصل هذا العلم العجيب بدون دراسة او قراءة ، لكن عن طريق « التعليم الرباني » ! (ص ٢٧) .
يقول :

« النفس القدسية . يحصل فيها جميع العلوم وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر » (ص ٢٦ - ٢٧) . ويقول : « العلم الحاصل عن الوحي يسمى علما نبويا ، والذي يحصل عن الالهام يسمى علما لدنيا (اي من لدن الله) » (ص ٢٨) . « والواصلون الى مرتبة العلم اللدني ، مستفنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم » . (ص ٣١) .

والشيء الخطير والمثير للدهشة ، ان الفزالي لا يكاد يرى فرقا كبيرا بين الانبياء والاولياء او بين المعجزات والكرامات . فليس يكفي عنده ان يقتصر المؤمن على تصديق اخبار المعجزات المنسوبة للانبياء ، بل يجب ان يعيش طول عمره يتوقع المعجزة في كل لحظة ولاسباب مجهولة وعلى ايدي الاولياء والمقربين من الاولياء وخدم الاولياء . بهذا يختنق العقل البشري ويفرق المؤمن في عالم خرافي لا ضابط له ولا رابط ، يرى في كل همسة فيه رسالة من الجن ، وفي كل حركة اشارة الى الغيب ، وفي كل حادث معجزة او انذارا بمعجزة . فالمعجزات عنده مباحة . كل ما في الامر انه يطلق على المعجزات الخرافية التي ينسبها للمتصوفة اسم « الكرامات » .

يقول عن هذه الكرامات المزعومة في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» ردا على اعتراضات المعتزلة :

« فان قيل : هل تجوزون الكرامات ؟ قلنا : اختلف الناس فيه . والحق ان ذلك جائز . فانه يرجع الى خرق الله تعالى للعادة بدعاء انسان او عند حاجته » (ص ٩٠) .

وفي « معارج القدس » ، يقتبس افكار ابن سينا الخرافية في فصل « اسرار الآيات » في الجزء الثالث من « الاشارات والتهيهات » ، فيزعم ان هناك « قوى نفسانية » قادرة على فعل الخوارق ، « اذا شاءت احدثت في مادة العالم ما تتصوره في نفسها ، فينبع ذلك ان تحدث سحب هائلة ورياح وصواعق وزلازل ، وصياح مثير ، ويتبعه مياه وغيون جارية وما اشبه ذلك - بارادة هذا الانسان . والذي يقع له هذا الكمال في جيلة النفس (اي القرينة) ثم يكون خيرا متعلما بالسيرة الفاضلة . . فهو ذو معجزة من الانبياء . . او كرامة من الاولياء . . ثم يكون شريرا ويستعمله في الشر ، فهو الساحر الخبيث » (٢٢) . وهكذا اصبحت المعجزات والخوارق سلعة قابلة للتداول عند الاولياء والسحرة واصحاب الدعوات والحاجات . بل الاخطر من ذلك انه لا يجد غضاضة في ان يتحدث عن هؤلاء في فصل بعنوان « بيان خواص النبوة » .

مثل هذه الافكار عن مرتبة النبوة ، امر صلاح الدين الايوبي بقتل شهاب الدين السهروردي . وافكار السهروردي في «الحكمة الاشراقية» لا تختلف كثيرا عن افكار الفزالي في «الرسالة اللدنية» او في «معارج القدس» .

لقد اقتبس الفزالي اوهام الفلاسفة الروحانيين (الفارابي وابن سينا) عن السحر والتنجيم وفعل الارواح ونفوس الافلاك . ثم انقلب بهذه الوهام نفسها يحارب النهج العقلي في الفلسفة . ومن ذلك انتهى

الى اختراع «العلم الصوفي» وما يرتبط به من فنون السحر والخرافة ، مثل « علم الحروف » و « علم التعبير » اى تفسير الاحلام ، الخ . فقد صنف الفزالي كتابا خرافيا في تفسير الاحلام اسمه « التعبير في علم التعبير » . واخترع ما يسمى « الجدول المثلث » الذي اورده في كتاب « المنقذ من الضلال » - (ص ٤٤) . واقام بذلك علم الحروف الذي هو مجرد اسم جديد لفن السحر بالكلمات والتعاويذ . وهذا تحايل على الدين . فالاسلام يحرم السحر بشكل قاطع - ويجعل منه خطيئة كبرى . والفزالي اول امام معروف في تاريخ الاسلام يشجع السحر والطلسمات ، تحت اسماء اخرى مثل عجائب الخواص او علم الحروف . فاذا شهدت اليوم مشعوذا يخسعد الناس بالتعاويذ والاحجية ، فاعلم انه تلميذ من تلاميذ « حجة الاسلام » الذي اعتمد علم الحروف وزعم انه دليل النبوة وبرهان الالوهية .

وقد اقام الفزالي مذهبه على نقطة بدء تثير الدهشة ، حين تصدر من رجل دين مسلم ، هي انه ليس « لللاهيات براهين قاطعة » وانه لا يمكن انتدليل على النبوة بالمنطق العقلي (٢٣) . فمن الاهداف الاساسية في كتاب « تهافت الفلاسفة » اثبات استحالة البرهنة عقليا على وجود الله او على رسالة النبي ، وهي الفكرة التي دافع عنها كثيرا بعد ذلك ، خصوصا في « المنقذ من الضلال » . وهذا هو السبب في ان بعض الملاحدة يتحمسون لتهافت الفلاسفة اكثر من المؤمنين !

فالفزالي كان مقتنعا بان العقل ينتهي الى الالحاد او الى التشكيك في الالوهية والنبوة . صحيح انه اقترح بدلا للعقل هو تحصيل الايمان بطريق القلب ، اي بالعيان الصوفي لا بالبرهان المنطقي . لكن ماذا اذا اقتنع قراؤه بجانب الاتكار ، ثم رفضوا البديل الذي يقترحه ؟ وماذا يبقى من دفاعه الصوفي عن الدين ، حين يتضح ان عجائب الخواص التي اقام عليها مذهبه ليست سوى اوهام غير علمية ؟ ان الفزالي بهذه الطريقة يلعب دور الدب الذي قتل صاحبه . فقد هدم البراهين العقلية للالوهية والنبوة ، ولم ينجح في ان يستخرج لها من التصوف دعائم راسخة .

ومع ذلك عاد يستخدم في كتبه المتأخرة نفس البراهين العقلية التي انكرها في « التهافت » . ففي كتاب « معارج القدس » حاول ان يثبت قضايا الالوهية والنبوة والروح ، مستخدما نفس البراهين الفلسفية التي رد عليها من قبل . فكتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » ، لا يكاد يختلف عن كتب الحكمة الالهية او الاشراقية التي كتبها فلاسفة الاسلام التقليديون ، اعني ابن سينا وغيره من ناقلي الافلاطونية الجديدة .

ولا يكفي لتفسير هذه الظاهرة ان نتحدث عن التناقض والتخيط في مذهب الفزالي ، كما يفعل كثيرون . بل الواقع ان دراستها تكشف عن قواعد مذهب الفزالي ، وتكشف عن حقيقة موقفه من الفلسفة التقليدية . وهذه نقطة سنتعرض لها في الفصل الاخير . فلننظر الآن كيف حاول ان يقدم السحر والتصوف بدلا من العقل .

يقول في « المنقذ » ، بعد ان قرر استحالة اثبات النبوة عقليا : « الايمان بالنبوة (يجب) ان يقر بانبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، يكون العقل معزولا عنها كعزل السمع عن ادراك الالوان والبصر عن ادراك الاصوات . . فقد اثبت ها الى ضلال واضلال ، ونبتوا (اي اتهموا) قراءه يزيع في الشريعة واختلال » .

٣ - السحر والخرافة :

رأينا ان الفزالي يعد طلب العلم انصرافا الى الدنيا وانشغالا عن هنا امورا تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حولها اصلا ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها . فان وزن دائق من الافيون سمي قاتل ، لانه يجمد الدم في العروق لفرط برودته . وما يزعم علم الطبيعة انه يبرد ، انما يبرد بعنصري الماء والتراب . ومعلوم ان ارباطا من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهما في الباطن الى هذا الحد » (ص ٤٣) .
ثم يقدم ما يعتبره دليلا آخر على النبوة - يضاف الى دليل

الافيون - هو دليل « الجدول الثالث » الذي يسمى ايضا : بطندو اجدوح ، او بدوح ، او بدوخ ، والذي يرى البعض انه اسم مشتق اصلا من الاسم الفلكي الخاص بالحسدى الالهات الفارسيات وهو « بيدخت » (٢٤) .
يقول الفزالي :

« الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها اطلق بواسطة هذا الشكل (جدول السهروف والارقام) ، يكتب على خرقتين وتنظر اليهما الحامل بعينها ، ويفهمها تحت قدميها فيسرع الولد في الحال الى الخروج . . وقد اقرؤا (أي الفلاسفة) بإمكان ذلك واوروده في كتاب عجائب الخواص » (ص ٤٤) .

الا ترى معي اذن ايها القارئ ، ان محاولة اثبات النبوة اعتمادا على تجربة الافيون والحروف السحرية ، هي محاولة غير ناجحة، تحمل من الضرر اكثر مما تحمل من الفائدة ؟

ثم قارن هذه الاوهام بكلمات القاضي عبد الجبار ، قاضي القضاة وشيخ المعتزلة قبل الفزالي بحوالي مائة عام :

« يجب الامتنال لما يدل عليه العقل » . « ان النظر لو لم يولد العلم ، لما عرفنا صحة الكتاب اصلا . . . وقد يجوز ان الرسول كان لا ينظر (اي لا يفكر عقليا) في الشريعات . اما العقليات ، فلو لم ينظر فيها لما علم ما يقتضي كونه رسولا . ولو لم يعلم ذلك ، لما علم صحة الوحي » (٢٥) .

ولا يكتفي كتاب « المنقذ » بنقل النبوة الى ما يسميه « الطور وراء العقل المزول عن العقل » ، بل انه يرى ايضا من ادلة المؤمن على النبوة ان « ينطق » طريق النبوة . ويبدأ طريق النبوة عنده بالتصوف . وبذلك جعل اولياء الصوفية اقرانا للانباء في ادراك عالم ما وراء العقل ، كما جعلهم (فيما سبق ذكره) اقرانا لهم في المعجزات . فهو بعبارة اخرى يفتح الباب على مصراعيه في كل مكان وزمان امام القوى « المزولة عن العقل » ، بدلا من ان يوسع القوى العقلية لتشمل النبوة كما فعل المعتزلة ، او على الاقل ، ان يحصر الاعتقل في اطار النبوة فقط .

يقول عن اولياء الصوفية في « المنقذ » :

« ان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنيهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة . فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة الا الاسم . فكلمات الالبياء هي على التحقيق بدايات الانبياء . وكان ذلك اول حال رسول الله حين اقبل على جبل حراء » (ص ٣٠ - ٣١) .

ويقول :

« فمن ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة » (ص ٣٦) . « فيجب تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل » (ص ٣٧) .

وفي « الرسالة اللدنية » يقول :

« العلم علم الانبياء والاولياء » (ص ٢٩) .

وفي كتاب « معارج القدس » يقول ان وحي الانبياء والهام الاولياء يتفان في « زوال الحجاب » ولا يختلفان الا في شيء واحد ، هو « مشاهدة الملك المفيد للعلم » ! (ص ١٧٤) ومعنى هذا الكلام بالعبارات الدنيوية ان جيريل يخاطب الاولياء كما يخاطب الانبياء بفارق واحد فقط : هو ان الانبياء يشاهدون حوريتهم ، بينما الاولياء يسمعونهم ولا يشاهدونهم !

وواضح تماما ان هذا الرأي يقترب من ادعاء النبوة . وهو على الأرجح واحد من اسباب التقديس الشاذ الذي حظي به الفزالي في العصور المتخلفة . لكنه لو كان قد نظمه مع السهروردي في عهد صلاح الدين الايوبي ، لكان قد امر بقتله كما فعل بصاحبه .

ومن ناحية اخرى ، فهذا الرأي بالغ الخطورة ، من حيث انه يصدر عن امام معروف مسموع الكلمة ، يعلن احكامه باسم الشرع . وعندما يقول الفزالي ان « ما وراء العقل » مكتشف للمتصوفة ، فانه

يصبح بذلك مشاعا مستباحا نكل من يلبس الخرق الممزقة او يسعى الى الخلوات المظلمة . واستنادا الى هذه الفكرة المنحرفة المعارضة لجوهر الاسلام ، تمتع آلاف الجاذيب والادعياء بمظاهر التقديس الوثني طوال العصور المتخلفة . وان الفزالي ليتحمل المسؤولية الكبرى عن هذا الانحراف ، الذي افرق السطاء في الاعيب الشعوذة مئات السنين ، وجعل من الايمان الدنيي تجارة يرتزق بها الجاذيب وخدم الاولياء وصانعي التعاويذ .

صحيح ان هذه الفكرة كانت منتشرة قبل الفزالي ، بتأثير المتصوفة المجوس المشعوذين من امثال الحلج ، لكن الفزالي اعطاهم تدعيم الشرع ، واعتمدها باسم الدين .

وفي العدد القادم ، نناقش افكار الفزالي في قتل اصحاب الاسئلة ، وفي العدل الالهي ، وموقفه من الفلسفة .

— البقية في العدد القادم —

اسماعيل المهدي

باريس

- (١) الاخلاق عند الفزالي للدكتور زكي مبارك ، الطبعة الاولى ، ص ٨٢ .
- (٢) الكتاب السابق ص ٨٥ .
- (٣) ص ٨٤ .
- (٤) تفاصيل هذا العصر التاريخي الغامض يمكن الاطلاع عليها في كتاب « العبر » لابن خلدون ، ج ٥ ، وفي دائرة المعارف الاسلامية ، في الدراسات الواردة تحت كل اسم من الاسماء التي سيرد ذكرها وخصوصا : نظام الملك ، وفخر الملك ، والمستظهر بالله ، وبركياروق ، وملكشاه .
- (٥) تاريخ الحضارة الاسلامية - تأليف بار تولد - الترجمة العربية - الطبعة الرابعة - دار المعارف - ص ١١٧ .
- (٦) المنقذ من الضلال ، مطبعة الجمالية ، الطبعة الاولى ص ٢٨ .
- (٧) لاحظ انه يصف اوامر المستظهر - الشاب الصغير ذي السنة عشر عاما والعبوية السلاجقة - بأنها اوامر « مقدسة نبوية » !
- (٨) تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ص ٢ - ٣ .
- (٩) كتاب « بداية الهداية » ، طبعة الحلبي على هامش كتاب « مراقي الصوفية » ص ٣٦ .
- (١٠) الاحياء ، المجلد ٣ ص ١٧٦ ، وكلمة « ابن » هي فعل امر من « يبني » ، و « لد » هي فعل امر من « يلد » . ويلاحظ ان الفزالي كالمعتاد لا يذكر من اين جاء بهذه الرواية الصوفية .
- (١١) كتاب الاخلاق لوكي مبارك ، ص ٦٨ .
- (١٢) Gazali, Paris, 1902, P. 36.
- (١٣) مطبعة بولاق ، الطبعة الاولى ، ص ٨٠ .
- (١٤) الاخلاق ، ص ٨٠ .
- (١٥) الاخلاق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .
- (١٦) الاقتصاد في الاعتقاد ، طبعة الحلبي ص ١٠٢ .
- (١٧) الاخلاق ، ص ٩٨ .
- (١٨) نفس الكتاب ، ص ١٤٣ .
- (١٩) الطبعة الاولى ، ص ٦٤ - ٦٥ .
- (٢٠) نستطيع ان نجد هذا الكتاب في المكتبات العامة ضمن مؤلفات الفزالي ، مثلا في القاعة الشرقية بمكتبة جامعة القاهرة .
- (٢١) الرسالة اللدنية ، طبعة الكردي ص ٢ .
- (٢٢) معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، طبعة الكردي ، ص ١٦٥ .
- (٢٣) « تهافت الفلاسفة » ، تحقيق سليمان دنيا ، ص ١٥٧ .
- (٢٤) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة Buduh . وهذه المادة محدودة من الاجزاء التي ترجمت الى العربية .
- (٢٥) النظر والمعارف ، ص ١٦٩ .